مُناقشات

الفوضوية . لمـــاذا ؟

بقلم : محيي الدين صبحي

اصبت بخيبة امل في نقد ابحاث العدد الممتاز من الآداب ، على الرغم من انني حين قرأت اسماء النقاد لم اتوقع منهم اكثر مما اعطوا ولا غير ما اعطوا . وان كنت اوجه عتبي اولا الى الدكتور سهيل ادريس لانه سلم الابحاث القومية الـــى اناس لا يهتمون بالمسألة القومية ولا يتعمقونها ، هذا اذا اردنا الا نقتحم ضمائر الناس ونناقش مسألـــة الايمان وعدم الايمان .

ان مشكلة القوميين الاشتراكيين هـــي ان هزائمهـــم المتلاحقـة وانقساماتهم جعلتهم يتصرفون على الدوام وكأنهم بحاجة الـــى شهادة « حسن سلوك » من الشيوعيين والماركسيين المحليين . والا فان الفكر القومي يجب ان يستأنف الى مصادره من الابحاث والباحثين المعتمدين من امثال الياس مرقص وكامل الزهيري واحمد بهـــاء الدين وجميـــل صليبا .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، كان بامكان مطاع صفدي ان يوفر علينا مشقة تسفيه سوء الفهم وتفنيد المغالطات ، لـــو انـــه في نقده للابحاث في عدد تموز ، وسع مناقشته لعبـــد الجليل حسن وجمـــال الشرقاوي بحيث لا تقتصر على سرد وجهة نظره ورده عليهما ، بل كـــان الاحرى به وهو يتصدى للرد على النقد ، ان يأخـــذ بوجهات النظـــر القومية المعروضة فيتبناها ويجيب الرجلين عن موقفهما من العدد الممتاز بموقف منسجم مع آرائه . كان ذلك يقربه من الموضوعية فـــي الـــرد ويجعل له غرضا اسمى من الدفاع عن نفسه هو غرض الدفاع عن الفكر القوميوالموقف القومي ضد اتهام ماركسيي الكتب لهمـــا باليمينية . وهذا التقصير ليس عيبا في مطاع وحده بـــل فـــي معظم المفكريـــن القوميين ، فواحدهم يدافع عن الموقف القومي كأنه ترانه وحده لانه يرى نفسه أمة وحده ، على حين ان ماركسيي الكتب يتصرفـــون بالتراث الماركسي ـ والسوفياتي ايضا ـ وكأنه وقف لهم كجماعة متعصبة تضرب عن يد واحدة .

على ان مطاعا اذا لم يقرأ مقالي « نحو فكر قومي ثوري » فانه لم يتعرض لـــه . اما عبد الجليل حسن وجمال الشرقاوي فقد نقـــدا المقال دون ان يقراه . ربما تصفحاه بعد ان انفقا على رفضه لانه لا يأتي على القياس المطلوب . لكن واحدا من الاثنين لم يقراه بدليل انهما لـــم يتعرضا لامرين لا بد لكل ناقد ان يتعرض لهما في نقد مقال او كتاب ، هذان الامران هما منهج المقال اولا وهدفه الرئيسي ثانيا .

ولكي يفهم الرجلان ما ورد في المقال سأذكر لهما ان منهج المقـــال تحليل حضاري لتاريخ الوطن العربي والتقسيمات العرقية لهذا التاريخ منذ اقدم العصور الى الآن ، وكيف ان الفكر السياسي الغربي يطبـــق هذه التقسيمات ـ التي دعوناها بمنهج الرجعية التاريخية ـ على الوطن العربي ليمحو صورة العروبة منه ويعيده الـــى صورته ايـــام الرومان وفجر المسيحية أي قبل ظهور الاسلام وتعريب المنطقة . ويؤسس الغرب على انكاره للعروبة وجوب تقسيم الوطن العربي اولا وشرعيـــة وجـــود اسرائيل ثانيا وحق الاقليات العرقية والطائفية في الانسلاخ ثم الاستقلال عن ارادة الوحدة .

وهذا تفسير اصيل جديد متعمق لم يسبقنا احد اليه فيما نعلم ، وان كان عبد الجليل حسن وكمال الشرقاوي عميا عنه او تعاميا ، امـــا لانهما لم يفهماه واما لانهما يقبلان التفسير الغربي ولا يجرؤان علـــى الجهر بكل ما يعتقدان ، فاستخدما الماركسية ستارا لتغطيـــة قناعاتهما الضالة وطمس هذه المماثلة الحضارية على الرغم من اهميتها واهميـــة النتائج المترتبة عليها .

واول هذه النتائج وجود سبع عشرة دولة ـ والباقي في الطريق ـ في أمة واحدة ، او يفترض انها امة واحدة . مـــع العلم ان روح العصر (وقد حددناها بانها الصناعة الثقيلة في الدولة القوميـــة) ترفض أي كيان من هذه الكيانات لانه لا يقوى علـــى تكاليف التصنيع ولا يحقق الصورة القومية المنشودة .

وثاني هذه النتائج ان مصر ـ وهي الكيان الوحيد القادر علـــى التطوير الصناعي ـ تواجه عزلة فرضها عليها الاستعمار وأعوانه مـــن الاقليميين على مختلف تيامنهم او تياسرهم ، بحيث تضطر الى مواجهة الامراض الموروثة والطارئة بمفردها ودون معين عربي ، وضربنا مثلا كثرة السكان وضرورة اعادة توزيعهم على الارض العربية القليلـــة السكان حفاظا على عروبة المنطقة . وقلنا ان مساعدة مصر ايام الحرب لا يـــدل على موقف قومي بل ان الموقف القومي هو مساعدتها ايام السلم علـــى تطوير نفسها ـ فهل هذا يناقض الماركسية في شيء ؟ وهل من الماركسية في شيء ان تختصم الدول التقدمية لتتيح فرصة البقاء اطول مـــدة ممكنة لامارات لا يزيد تعداد سكانها على ثلاثين الفا ويبلغ دخلها السنوي من البترول ثلاثين مليون جنيها ؟ وبينا بعد ذلـــك ان اسرائيل ليست وحدها في الطمع بالارض العربية بل هناك ايران في الخليج والحبشه في السودان والصومال والبربر في أفريقيا ، عدا عن الدعوات الطائفية ومؤيديها من هؤلاء جميعهم ..

ولاقرار شرعية الثورة الوحدوية الاشتراكية طرحنا نظرية الملكيـــة القومية وبينا ضلال المقياس الاقتصادي ، من حيث ان غاية الأمم ليس الرفاه بل التقدم ومساعدة الامم الاخرى .

وكان ثالث هذه النتائج سلخ الماركسية عن القومية وتقليصها الى تطبيق حرفي على واردات ودرجة في التقدم الحضاري غيـــر مؤهلـــة لاستيعاب النظرية الماركسية واعطاء نتائج في تطبيقها .

وكانت نتيجة المقال والهدف منه اعلان اخفاق الاشتراكية الاقليمية في تحقيق اهداف المجتمع العربي في الحرية والاشتراكية والوحـــدة ، ثم الدعوة الى توحيد التخطيط الصناعي وتصنيع الزراعـــة وتوزيـــع السكان .. والا فيجب تهديم الكيانات ولو عن طريق العمل الفوضوي الذي يضعف بنية الدولة ويسهل على الثورة الوحدوية محـــو الكيـــان ودمجه في دولة الوحدة !

وهنا ارتفع ضجيج الشرقاوي وعبد الجليل ومحمود العالم ، اشار الي ثلاثتهم بأصابع الاتهام : هذه هرطقة ، وهذا يأس ، وهذا نزق ..

على رسلكم ايها القوم . يا من تعتنقون العلمية والعلمانية . لـــو ان لديكم درهما منهما لتأملتم مليا فيما قلت ، وسأعيده :

« ان اجهزة القمع التي يملكها حكام الكيانات تفوق طاقة التنظيم لدى الملايين القليلة الخاضعة لتسلطهم » .

واذن فلست انادي بالفوضوية لاسقط الدولـــة واتمتـــع بالعيش وحيدا في الغابة . بل انني ازعم ان الفوضوية مرحلة يجب ان تسبق الثورة الوحدوية الاشتراكية لضرب مصالح الطبقة البورجوازية التـــي تدعم الكيانات وتدعمها الكيانات . وهذا ما نقوله الماركسية ايضا لكن الماركسيين الذين وضعوا انفسهم مطية لهذه الكيانات ولمـــن كونهـــا ، باسم الاشتراكية ، اصبحوا شركاء في نهب خيرات العملية الانتاجيـــة كالبورجوازيين واكثر ، فضلا عن انهم جزء من اجهزة القمع لا يتجزأ .

من هذا الموقف ، ابرر رفض عبد الجليل حسن لتحليلي للواقـــع العربي ، فهو كواحد من المنتفعين بخيرات الاشتراكية الاقليمية يخاف على هذا الكيان من الانهيار ، لئلا يضؤل نصيبه فـــي دولة الوحدة . وابرر ايضا كثرة اشارات التعجب التي رافقت حديثه عـــن مقالتي ، حتى بت اعتقد ان الرجل لا يمت الى الماركسية ودعوتها الثورية مـــن قريب ولا من بعيد ، وانما ينادي باستقرار الاوضاع وتـــرك التطـــور التلقائي يأخذ مجراه . وربما كان الرجل يخاف على رأسه اذا تم شن الحملة على اجهزة القمع التي تسد الطريق على نشوء حركـــة منظمة للثورة الوحدوية الاشتراكية ، فاعذروه .

على انني اذا قبلت منه تصنيف تحليلي الواقعي العلمي الاصيـــل لبعض نواحي الاقليمية واشتراكيتها ، بأنه « يعكس (حالة) نموذجية طريفة من الصبيانية اليسارية » ، كدليل على جمود عقل الرجل وتفاهة احساسه بالوسيلة العملية وضعف محاكمته لواقع الكيانات المجزأة ان كان وحدويا او جبنه عن اعلان ايمانه بها ان كان كيانيـــا ـ اذا قبلت منه ذلك كدليل ، فانني ارفض رفضا باتا ما اعلنه عبـــد الجليل حسن

في مطلع حديثه عن دراستي ، حين حاول ان يقوم ببعض النفاق الاجتماعي الذي تقتضيه شطارة الناقد المتعالم :

« ثم ينتقل الكاتب الى حديث جادو صادق عن التجزئة والاقليمية والاستعمار والصهيونية وتكوين اوروبا الحديثة وتفكيرها الحضاري بالنسبة للعرب .. ويقدم ملاحظات عديدة جيدة ويطرق الى مشاكل هامة ويشير الى كثير من الاساليب الاستعمارية ضد الامة العربية ، وان كنا لا نوافقه ايضا على كثير من التعبيرات والملاحظات ، ولكنه يقدم بشكل عام ملاحظات مفيدة حول هذه الموضوعات » .

هذا الكلام مرفوض تماما من جانبي لانه نفاق اولا وتفاهة وسطحية ثانيا ، بل انه يمثل أسوأ جوانب التفاهة في الفكر العربي من حيث كونه فكرا فوقيا يصدر احكام قيمة دون الرجوع الى مصادرها التحليلية ومكوناتها الجزئية في الواقع الحي والتراث المكتوب . فهذه الملاحظات الاجمالية مع هزة رأس تشجيعية لامر حقير حقا اذا وجهت الى بحث تحليلي مليء بالمعلومات والوقائع الحيه المعاشة . وان صرف هذه التحاليل دون مناقشتها لامر يدل على الجهل حتى لو ذيلها الناقد بعبارتي « جيد ومفيد » لان هذا التذييل يدل على سوء نية اذا اتبع صرفه لكل البحث بالوقوف طويلا عند اصراري على تحطيم الكيانات القائمة في سبيل انشاء الدولة الموحدة ، وعلى خلخلة المجتمع البورجوازي بغية اسقاطه .

ومهما يكن من امر ، فانني في مقالتي كان لدي من الدأب ما قدمت به معلومات وحللت حقائق ، وكان لدي من الوضوح الفكري ما مكنني من طرح بعض مشكلات الامة في الخارج والداخل ، وكان لدي من الشجاعة ما جعلني ارفض الاشتراكية الاقليمية واطالب بتهديم الكيانات على رؤوس اصحابها : اما عبد الجليل حسن فكان من العجز بحيث سرح المعلومات والحقائق المعروضة بين يديه ، وكان من الخلل العقلي بحيث اخفق في مناقشة المشكلات التي طرحتها ، وكان من الجبن بحيث لم يجرؤ على ان يعلن ما يريد وما يرفض : فهل هو مع الاشتراكية الاقليمية او ضدها ؟ وهل يقر وجود الكيانات فيكون بذلك عميلا لمن وضعوا « الصورة الرجعية التاريخية » ام يرفض وجودها فيكون قد وضع نفسه تحت لوائنا ، نحن الوحدويين ، دون ان يدري ؟

ان بحثا خاليا من المعلومات والحقائق ، عاجزا عن مناقشتها وهي بين يديه ، غائب الهدف من كتابه ، لهو بحث « غير جيد ولا مفيد » . وكان الاولى بصاحبه الا يكتبه حتى ولو للدفاع عن الماركسية العلمية الديالكتيكية المادية التاريخية .. الخ الاسماء الحسنى ، لان هذه الماركسية بالذات ترفض هذا النمط من التفكير الهدام ، والعقيدة الغامضة ، والنفاق الاجتماعي ، والجهل بالوقائع .

اما جمال الشرقاوي فكان اقل نفاقا واكثر انسجاما مع مقتضيات التخلف الفكري التي تتطلب الالتزام بحرفية النصوص حتى تتجمد وتتصلب ثم سلخ النظرية عن اي تفاعل لها مع الفكر والواقع حتى ترقى الى سماء الملكوت مع الكتب المقدسة والالواح المفقودة وثابوت العهد .. ويبدو انه يريد ان يرقى معها ايضا لذلك خضع لمبدأ « اللامساس » او التابو ، فلم يلوث افكاره المنقولة عن الكتب ، بأي موضوع طرح في المجلة ، بل سرح مواد العدد الممتاز بشيء من الغرف والترفع :

« هذه المقالات لا تحتاج لجهد كبير .. »

رحماك ! اهبط الينا من عليائك ايها العالم العلامة ، تطلع بنظرة حانية الى عبادك الفانين يا من حويت حكمة الاولين والآخرين !

فاذا لم تبذل جهدا لفهم القضية العربية كما تتبلور في اذهان المثقفين العرب ، فلمن ولاي شيء توفر هذا الجهد بحق السماء ؟

بالطبع لم يف جمال الشرقاوي لمبدأ توفير الجهد وفاء كاملا - لانه لو فعل لما كتب تعليقه العابر على العدو - وانما تناول الابحاث برؤوس اناملة ، والقى عليها نظرة سريعة ثم طوى عنها كشحا ، ليعلن ان المثقفين :

« اخفقوا اخفاقا صارخا .. لا كقادة فقط .. وانما كمثقفين ثوريين ايضا » ..

جريا مع مبدأ « اللامساس » ، فان جمال الشرقاوي وضعنا خارج التاريخ ! ذلك ان المثقف ليس قائدا ، لكنه اذا لم يكن ثوريا فليس مثقفا ايضا - بعد هذا الاستلاب ، ماذا بقي لنا ؟ بل ماذا بقي للامة باكملها اذا طرد معلق متعسف مثقفيها على هذا النحو ؟ بالطبع يبقى لها السادة الواردة اسماؤهم في ذيل مقالات نقد الابحاث : عبد الجليل حسن ، جمال الشرقاوي ، محمود امين العالم .. الخ .. ولكن متى يكون المثقف ثوريا ؟ الجواب البسيط والعالمي ، هو انه يكون كذلك حين تحصل لديه المعرفة الكافية لتحليل الواقع وطرح منهج لتغييره نحو المزيد من التكامل الحضاري (الوحدة ، على الصعيد العربي) والتلاؤم مع مقتضيات المعرفة الانسانية وروح العصر (اي العلمنة والتشريك والتصنيع) . وان جميع من وضعتهم خارج التاريخ ينطبق عليهم هذا التعريف الاك انت وعبد الجليل حسن وجورج طرابيشي الذي اكثرت من الاتكاء عليه والغرف من فيضه ، بحيث يشكل استشهادك به ثلث مقالك ، ربما ، تمشيا مع مبدأ توفير الجهد . ذلك لان من نبذتهم من ملكوت نظريتك اكبوا على الواقع تفهما وتحليلا وطرحا ومناقشة بل ، وتغييرا ايضا . واما انتم فتجنبتم الواقع ووقائعه واقتصرتم على الاحكام التقييمية غير المعللة ، وابطنتم عقيدتكم فلم نعرف الصورة التي تريدون ان يكون عليها هذا الوطن الممزق المبتلي باصحاب الرفض للرفض . ان مقالتك لا تحتاج الى النزق لانها غارقة في الاستخفاف بعقول الناس ومذاهبهم . والا فما معنى ان تختم جملتك السابقة بقولك :

« وذلك بقدر ما ابتعدوا عن المنهج العلمي في رؤية الظاهرة الثورية العربية ، وعجزوا عن تحليلها التحليل الصحيح ! » .

أي منهج هذا الذي تتحدث عنه ؟ وهل طبقته انت نفسك حين علقت احكامك في الهواء بلا اساس ؟ وماذا فهمت من المماثلة التي وضعتها في مقالي بين فدائيي غزة ضد اسرائيل وفدائيي الوحدة ضد الكيانات ؟ سأشرح لك ولزميلك ذلك :

تقول النظرية الماركسيه ان الطبقة المالكة تقيم السلطة لتحمي بها املاكها . ويقول تحليلنا تأسيسا على النظرية ، ان البورجوازية العربية التي تستولي على ثمرات العملية الانتاجية التي يقوم بها الفلاحون والعمال العرب ، هي التي تحمي الكيانات التي اقامها الغرب المعادي للقومية العربية والموالي لاسرائيل . ومن هنا ، وبدافع ولاء الكيانيين واسرائيل للمخطط الغربي المنكر للعروبة ، توجب ان نعامل الكيانيين معاملتنا للغزاة الاسرائيليين - ولكن بعد محاولتي انشاء كومنولث عربي من الدول التقدمية ، او تنسيق مشاريع التصنيع والتنمية فيما بينها بحيث تتكامل ولا تتضارب .

واذن فتحطيم الكيانات مرحلة اخيرة نسبقها محاولتان اذا اثمرت أي منها فلا داعي للتحطيم ، اذ سيحل التكامل والاندماج والتنسيق محل التحطيم والتهديم . هذه النقطة غابت عن ذهن الشرقاوي وحسن بدافع من سوء الفهم او سوء النية - وهذا ما جعلني أكاد اجزم بانهما لم يقرأا المقال - مثلما غابت عن الاستاذ محمود امين العالم في بحثه المتسم بحسن الفهم وحسن النية معا . وان كان قد وقع في خطأ زميليه فلانه رغب في تصنيفنا نحن الثلاثة - انا ومطاع وعصمت - في صف واحد بنتائج واحدة « ذات النتائج المثالية المغامرة التي يصل اليها الدكتور عصمت سيف الدولة ، نتيجة للوثب الفكري فوق الحواجز الموضوعية ، واتخاذ الغاية الاخيرة من النضال وسيلة اولى له » .

وهكذا فأرجو ان يرى الاستاذ العالم انني قدمت مشروعين احافظ بهما على الكيانات التي يحبها وعلى الاشتراكية الاقليمية التي يؤمن بها ويشجعها ويرى انها « خطوة متقدمة في طريق الوحدة القومية » . على حين انها ما دامت تعجز عن ايجاد صناعة عربية ثقيلة ليست - في رأيي - الا وسيلة لاطالة عمر الكيانات ريثما تلتقط اسرائيل انفاسها عشرين سنة اخرى او اقل ، لتلتهم المزيد من هذا الوطن الممزق وتزيد في عدد اللاجئين والنازحين والمسميات الاخرى ...

ان قراءة تعليقي عبد الجليل حسن وجمال الشرقاوي ، يدل على مدى قصور الماركسيين عن فهم الواقع العربي . ونصيحتي اليهم هي ان يقرأوا مع الماركسية التاريخ ويسمعوا الانباء وليسعوا الى تحليلها ، فعسى ان يهديهم ربي الى شيء من التفاعل مع الحياة والتبصر بالوقائع والواقع ، والا فان الكتب ستحجر ادمغتهم وتجعلهم اقلية خارج حركة التاريخ .

أما عدد الآداب الممتاز الذي راح ضحية الجهل واللامساس ، فلا يزال بحاجة الى ناقد قومي يحلل ابحاثه تحليلا علميا يستند الى واقعنا من جهة ، والى التنظير الماركسي من جهة اخرى ، والى شيء من المنهج من جهة ثالثة ...

دمشق — محيي الدين صبحي